وطن الغاب

للكاتب الاسباني
هوراشيو كيروجا
ترجمة : فوزي حماد

من منا لا يعرف شريعة الغاب وطريقة الحياة فيها ... فلقد أصبحت مثلا نضربه على السنتنا دائما ، وكل ما نشاء ..

لقد عاشت الحيوانات من متوحشة واليفة ، في الغاب ، قرنا بعد قرن ، وجيلا بعد جيل .. يسودها الصفاء والوئام ، ويسيطر عليها التفاهم والانسجام ولا تعكر صفو هذه الحياة ورتابتها الا معارك متفرقة ، ومنازعات وقتية لا تلبث أن تهدأ ، ليعود الغاب الى مألوف عادته ، ترفرف عليه روح واحدة ، هي روح الحرية ، وصفاؤها .. وما دامت الحرية قائمة ، فالسلام مستتب وارف الظلال ..

وهكذا خيمت السعادة أمدا طويلا على الغاب ، الى أن جاءت النحل ذات يوم تعكر صفوها ، وهي التي ألفت منها جماعات الغاب دائما شيئا من مشاعر التعالي ، تحس بها نحو الحيوانات الاخرى التي تعيش معها في وطن واحد ، وتجعلها دائمة التحوم في الفضاء مستقلة عن جنس الى جنس ، تمتص رحيق هذه الا قحوانة لتنتقل الى تلك تجني منها رضابها ..

أول كائنات النحل هي التي قطعت على حياة الغاب رتابتها ، فلقد رأت ذات يوم ، قاربا ينساب مع مياه النهر .. متجها الى الغاب ، وفي داخله انسان ، وسرعان ما صاقت بجناحيها تدعو حيوان الغاب الى التشاور في أمر جلل ، فلما تكامل الجميل وانعقد المجلس ، راحت النحل تنقل الى الحيوانات الاخرى ما رأته ، وتقدم اليها تقريرا عن الاعمال التي قام بها الانسان منذ وطئت قدماه ارض الغاب

وقالت النحلة وهي تومئ بجناحيها الى الساحة التي اختارها الانسان وسط الغابة مقرا لسكناه .. وماذا يهمنا من امره ، انه مخلوق طيب ، وانا أعرف من يكون .. انه الانسان ..

وقال السنجاب ، وهو حيوان لا يقل في ضخامة حجمه عن الفيل .. وأي خطر نخشاه من هذا المخلوق .. وهو لا يعدو أن يكون صاحب ساقين ليس الا ؟ ..

والسري النمر يرد عليه قائلا .. ولكن معه بندقية وفي وسعه أن ينتقل بها عددا من السنجاب ..

فقال السنجاب فزعا .. اذن ما العمل ؟ أرى أن نفر من طريقه ، ونهرب ..

او نهـــرب ؟ الم يحذر هو العيش في الغاب ـــ انه حر ـــ وفي وسعه ان يقتلنا ، كما ان في وسعنا ان نقتله ـــ لا ـــ لا لن نهرب بل يجب ان نبقى ـــ

وقال التعبان ـــ أجل لن نهرب ـــ ونبقى

ورددت ارجاء الغاب، هتاف الحيوانات وهي تعلن التصميم على البقاء ، والحياة في الغاب ـــ

وهكذا عاش الانســـان والحيوانات جنبا الى جنب ، في الغاب الذي لايعرف الحدود ، ولا يعرف القانون ولاالشرائع الا شريعة القوة ـــ فكل من فيه عرضة للقتـل ، وعرضة للهجوم ، ومع ذلك ، فكلهم يعيشون في هدوء ودعة وأمان ـــ

وانقضت سنوات طويـلة ، ومضى الرجل عن الغاب وكانت جماعة الحيوان قد راقبت ماقام به استعدادا للمضي في رحلته ، اعترت به وهو ينزل قاربه الى الشاطئ ، ثم مضى بعد عبر الغابة هابطا

مع النهر واخترقت جماعة الحيوان منزل الرجل ومعداته ، علم تعر عليهـا بعد رحيله ، اذ اعتبرت أن ضـياع ذلك الجزء الصغير من الغابة ، لم يؤثر كثيرا على نفوذها الواسع الحدود في مملـكة الغاب ـــ

لكن النحل ، لم تحترم عزلة هذا المنزل الهادىء الوديع ، في وسط الغاب فاقتحمته مع أشـعـة الشمس ، عبر النافذة المفتوحة ، وعرتها الدهشة من كل ما رأته في البيت من عتاد ومتاع ـــ

وداومت النحل على اقتحام البيت في كل يوم ، وهي ذات صباح سقط كتاب من أحد الرفوف وانفتحت صفحاته أمام النحل، فقرأت ـــ وقرأت ـــ واستوعبت ما ضمنته هذه الصفحات من حكمة الرجل ثم عادت طائرة الى الغابة ، وقد استعرضها الفرح والنشـاط ـــ ودعت جمـاعة الحيوان الى اجتماع عاجل ، ثم بادرت الرعاة قائلة ـــ لقد عرفنا الآن ما يتحتم علينا ان نعمله ـــ لقد تعلمنا حكمـة الانسان وعلينا أن نتخذ لنا وطنا ، ان الانسان متفوق علينا ، لانه صاحب وطن وعلينا أن نجدو حذوه ـــ

وعمت الدهشـــة وجوه الحيـوانات التي لم تفهم ما قالته النحل ، وما فيـه من حكمة ونفع ـــ وراح النمر يتساءل ولماذا يكون لنا وطن ؟

فردت النحل ـــ لـكي تكون احرارا ولكل حر وطنه ، ولـكنكم لا تفهمون ما يعنيه الوطن للاحرار ، لانكم لا تفهمون معنى التوالد المدرى الذي نفهمه نحن ونحن كالانسان ، سواء بسواء ، دعونا نقيم لنا وطنا كوطنه، لنكون فيه احرارا

وردت الحيوانات كلها بصوت واحد

ولكن السنة بالاحرار الآن ، فقالت النحل .. لا ، وليس هذا هو موضوعنا اننا بحاجة الى بلاد. فاين وطنكم؟ وهل لاى منكم بلاد ؟ ، فلا معنى للحرية ، اذا لم يكن لكم بلد او وطن .

وسكتت الحيوانات على مضض ، فهى لاتستطيع أن تفهم لان مايقوله النحل فوق مستوى عقولها المحدودة . وأمسكت البطة بالاعصان ، وطأطأت برأسها الى الارض موافقة على فكرة النحل ، وسرعان ماانتقل الهمس من حيوان الى آخر ، وعم التجاوب مع الفكرة واتخذ القرار باقامة الوطن .

وعهدت جماعة الحيوان الى النمل والنحل بمهامهم المطلبين الاساسيين للوطن وهما الحدود والراية ، فاختارت النحل الوان «قوس قزح» لتكون الراية مؤلفة منها ، وسرعان مانولت نسجه ورقمته مرفرفا فوق القاعة رمزا للوطن الحر .

وشرعت النمل فى اقامة الحدود ، ولم يمض طويل وقت حتى كانت الاسوار ترتفع ثمرة الجهد المضنى حول الوطن وتولت العناكب احاطة سقفه بسياج من نسيجها .

وعاشت الحيوانات داخل هذه الاسوار مرحة ، يوما بعد آخر . ودأبت على ارتقاء الاسوار يعلو صوتها بالنشيد والغناء بينما يرفرف العلم فوق الوطن الحر ، الذى منع على الحيوانات الغريبة الدخول اليه .

وتعاقبت الشهور ، وخفت الحماسة وصعقت بصورة متدرجة واخذت الحيوانات تعف على الاسوار ، متطلعة الى

الخارج ، تحرمها التهمة . ولكنها لاتلبث ان تسرى عن نفسها بأن البلاد بلادها ، وان لاتطير لها ولا لاسوارها ، وان عليها ان ترضى بها وطنا سعيدا ، ومستقرا آمنا لها .

واحس النمر ، وكان اكثر الحيوانات فرحا بوطنه في البداية ، بشعور غريب يستبد به ، انه يشكو الظمأ لاول مرة في حياته ، فهو يشرب ويعب الماء عبا ولكن الماء لايروى له غليلا ، ولا يطفىء له عطشا ، انه يحس بجفاف مرعب في حلقه ، لايبرى له سقما ، وسيطر عليه القلق ، واستبد به ، وظل يخطو من مكان الى آخر ، داخل اسوار الوطن .

وسرعان ما انتقل هذا القلق الى الحيوانات الاخرى ، فهى لا تهدأ ولا يستقر لها قرار .

وجاءت نحلة من الجنوب ذات يوم تقول .. ان الرجل الذى غادر الغاب قد مضى الى الحرب مدافعا عن وطنه .. وقالت للحيوانات ، انه عندما يعود ، سيوضح لها سبب ما نعانيه من ضيق ، فنحن نفتقد شيئا ، ولا ريب في أنه يعرف ماتفتقد ، فهو يحارب دفاعا عن وطنه منذ أربع سنوات ، ولا بد له ان يؤوب ، فلنستطر أوبته .

ولهفت جماعة الحيوان لعودة الرجل الا النمر ، فلقد كاد الظمأ يقتله .. وأخيرا عاد الرجل الى بيته المهجور .. يقوده ولده الصغير من يده .

وقال الغراب عندما رأى الرجل والطفل يقوده .. انا اعرف ما حدث له فلقد سبق لى أن رأيت رجلا مثله .. انه أعمى ، لايرى شيئا ، ولذا فهو في حاجة الى ولده ليدله على طريقه .

اجل لقد عاد الرجل مريضا وقد فقد بصره ، واعتكف في منزله أياما لايبرحه وأخيرا ، خرج في ليلة دافئة يجلس امام منزله موقد لفته العامة الكبيرة باشجارها الباسقة ، المرتفعة الى السماء ، التي رصعتها النجوم ، وراح نسيم الليل الدافىء يداعب وجنتيه .

واحس الرجل الضرير ، انه ليس وحيدا في هدأة الليل .. ولم تمض لحظات ، حتى سمع صوتا يبادره من أعماق الظلام قائلا .. لقد أقمنا وطنا ولكننا لاندرى ما نفتقد ؟ ولقد كنا ننتظر أوبتك بفارغ الصبر لتشرح لنا ما نعانيه والعلة في ما نحس به من آلام ، قل لنا يرحمك .. لم نحس بالنعاسة؟ لقد دافعت عن وطنك سنوات أربع ، ولا ريب في أنك تعرف سبب شقائنا .. علم لاتدلنا عليه .

ومضى الصوت المتردد يتلو على مسامع الرجل كل ماحدث في غيبته ، واحنى الضرير ، هامته قليلا ثم رفع رأسه ، وانطلقت الكلمات من فيه بهدوء ورصانة قائلا .. نعم .. في وسعى أن ابين لكم سبب شقائكم وتعاستكم .. ان الوطن الذى اقمتموه ، لاينقصه شيء ، وليس فيه مجال لمزيد من التحسين ، لكن كل ماحدث هو انكم باقامتكم حدودا لهذا الوطن ، اصبحتم بلادكم وحريتكم .

وشعر النمر ، ان ظمأه قد انتهى ، وان حلقه الجاف قد ترطب بشيء بارد وانبعثت من احاسيسه موجة دافقة من الحرية الكامنة العميقة ، وانبعث بصوت راعد ، هو الزئير بعينه يقول .. حقا هذا هو الصدق كل الصدق . لقد فقدنا حريتنا .

ومضى الحمدى يقول .. أجل ، لقد

ضيتم لانفسكم سجنا ، فقد كنتم احرارا بلا حدود ، لكنكم اصبحتم حريتكم . عندما اقمتم لانفسكم حدودا ، فبلادكم ليست هذه الرقعة الصغيرة من الارض، ولا شاطىء النهر ، وانما الغابة كلها هي بلادكم تماما كما ان بلاد الرجل هي ..

وهنا توقف الرجل عن الحديث . فقد سمع صوتا ساحرا .. يسائله لاول مرة ، ولم يكن قد سمعه يتحدث من قبل .. وما هي بلاد الرجل ؟

وتريث الصدى لحظة ثم استدعى ولده البالغ من العمر ثماني سنوات واقعده في حضنه ثم شرع يقول .

انا لااعرف هذا الصوت الذي وجه سؤاله الي ، ولا اعرف اذا كان من اهل الغابة اولا ، ولكني سأجيب على سؤاله على اي حال . اجل لقد حاربت دفاعا عن بلادي اربع سنوات ، وفديتها بدمي وبحياتي .. وها انا اعاطيك يا ولدي وقد لاتفهم منيا اقوله الكثير ، فانت مازلت في نعومة اظفارك ، ولكن شيئا مما سأقوله لك ، سيظل حيا في قرارة نفسك ، يشب معك كحلم ، لا تلبث أن تدكره عندما تصبح في عنفوان الشباب

الوطن ياولدي، هو خلاصة كل ماتحب فهو يبدأ من الدار التي تحلق في الدار حولها لتصطفي بدفئها ، ولكنه لا يقف عندها . فالصديق الصدوق الذي تحبه لا يجلس معنا الى ظل الدار ، كما لا يجلس اليها معنا ، ذلك الرجل ذو القلب الكبير الذي تجله وتحترمه ، ولايجود به التاريخ الا جيلا بعد جيل ، ولا يقسم مجلسنا ذلك الفيلسوف الذي يمنحنا في العزم كلما لحق بنا الاجهاد في كفاحنا المضني ، ولا الحبيبة التي تعشقها

ولكن ايضا يوجد هؤلاء الناس الذين يشتركون في حبنا ، اي ارض يقيمون فيها واي نسيم يعبرون منه ، هو ارضنا ووطننا وهواؤنا

فكل شبر من الارض يقيم فيه انسان ذو نية صافية طيبة ، هو جزء من بلادنا فالوطن حب لا واحب ، والمدى الذي تصل اليه الروح ، هو جزء من هذا الوطن .

وما نعتبره شرقا وسهلا في هذا الجانب من الحدود ، قد يكون كذلك في الجانب الآخر .. فالنهر طريق يصل بيننا وبين من نحب ، والرجل الذي يغلق قلبه عند أحد الانهار ، يحمل هذا القلب الى سجن مقيت .

صبح ياولدي حدود بلادك بدماء قلبك، فكل ما تحمت من قلبك حقائه ، سواء كان قريبا منك ، او على بعد الف ميل هو غريب عنك .

وتعتمد قوة بلادك على نفسك ، فقطعة الارض لاتساوي شيئا اكثر من الرجل الذي يحطو عليها ، وعندما يحترق فؤادك بحرارة حب ذوي القيم الحقيقية ، دون اكتراث بنسبهم أو أهلهم ، فانذاك تصبح بلادك ، وهي خلاصة حبك البلاد التي لامثيل لها في العالم

واذا ماشهدت يابني قسما من الحب والعدالة أو شهدنا ، فاسمه اتباعا اعمى وذلك لان بلادك هي جماع هذه النسم او القبسات ، واذا رأيت أن العدالة قد ديست في بلادك ، وان الخير قد امتهن، فانسحب منها كوطن لايليق بك . واذا رأيتني ، أنا والدك الذي طالما آمنت بي، ارتكبت خطأ، فأخرجني بعيدا من فؤادك ، مع انني أنا الذي كونتك

وتوليت تنشئتك ورعيتك ، أغر اليك من بلادك .

وانني احذرك من بعض كلمات قد تسمعها أحيانا ، وهي أن المثل الأعلى للبلاد يرتكز على المنطق الجاف ، ويدور مع العاطفة .

كلا يابني .. والف كلا .. انه المنطق الجاف الذي يعمل في المعنى الحقيقي للوطن ، فيجعل منه أنانية قاسية ، والعقل وحده هو الذي اخترع للحدود والجمارك والحواجز فائدة ، وهو الذي حصد المثال الأعلى للوطن في نطاق المنعة وشوه الطريق الطبيعي للوطن وتفكير العقل السقيم هو الذي شوه المنطق ، فجعلنا نتأخى مع الغريب ونستعد على القريب .

ان الوطن الذي يرتكز الى مثل هذا المنطق ، يبدو كل احساس ، واذا صمت العاطفة الوطنية من الحب ، وكان الحب تافها للحصول على مثل أعلى ، فوطن كل انسان ، يمتد الى أبعد الحدود ، حتى يجد خطا يوقف امتداده ، والبشر دون القلوب العمياء هم وحدهم الذين يستطيعون بلوغ الرضى داخل حدود معينة وتحت حمق راية واحدة .

ويحدد العقل الوطن ، بالاراضي التي تشملها ، أما الاحساس .. فيحدده نعيمة الناس الذين يعيشون فيه ، وكل رجل يستيقظ في دقات فؤاده ، مع دقات فؤاد اخيه الذي قد يكون بعيدا عنه وكل رجل يتألم لحيف يقع مهما كان بعيدا عنه ، بملك ذلك الشيء النادر النفيس ، وهو المثل الأعلى ، وهو وحده ، يستطيع أن يفهم الاخوة السعيدة التي ترتبط بين البشر ، وهي الاخوة التي تعمم الوطن الحقيقي .

تذكر هذه الاقوال ياولدي ، عندما تكبر وتشعب عن الطوق .

وتوقف الرجل عن الحديث وتعرفت الحيوانات التي ظل الصمت يلفها طوال حديثه ، وقد اعترت مشاعرها ، ولكن أيا منها لم يعد الى الوطن الذي ابتدعته في تلك العاصفة الفسيحة ، بقوم السلام الذي حسرته ، وتوحد تلك الحرية التي افتقدتها ، وبحو هذا السلام وتلك الحرية ، صمت الحيوانات ، بعد أن دمرت الحواجز التي أقامها النمل ، ومزقت نسيج العناكب ، ونكست راية النحل .

أما الغراب وهو المعروف بحكمته ، فقد أدار رأسه من ناحية الى أخرى وتفرس في الجندي الصغير طويلا .. هذا حسن وجميل .. ولكن الرجل الذي حارب طويلا من أجل بلاده ، ثم جاء يتحدث بمثل هذه الاقوال ، لا يستحق أن يظل حيا ..

وهمس الغراب مصغيا بجناحيه

وحقا ، فقد مات الرجل بعد أيام .. ولكن شيئا منه ظل حيا ..

اذ ظل ولده يتذكر أقواله ، ليعيش في المستقبل رجلا حرا .